سلسلة: علماء الإسلام وملحمتهم التقويمية عبر التاريخ

مقدمات نحو صياغة أنموذج منظوري إرشادي إسلامي عام في الفقه والعلوم

(10) صناعة الفقه: الأصولية الجعفرية والاجتهاد المؤطر بالأسطورة

الحلقة الرابعة عشرة

6.1) البيئة السياسية التي وطأت للمذهب الإحدى عشري

كان محمد بن هارون الرشيد المعتصم بالله العباسي (218 هـ - 227 هـ) أول من استعان بالخزان البشري الهائل للشعب التركي القوي الشكيمة والبأس والانتشار في حرسه وجيشه، وذهب يستجلبهم من سمرقند وفرغانة والتركستان ليوطد بهم إمبراطوريته في الداخل ويقاتل بهم أعداءه البيزنطيين وغيرهم في الخارج.

وعلى نهجه سار ابنه هارون الواثق بالله (227 هـ - 232 هـ).

وسيولد **آخر أئمة الإحدى عشرية التاريخيين**: الحسن العسكري (232 هـ - 260 هـ) في ذات السنة التي توفي فيها الواثق.

قلت:

وقد عانت دار الخلافة طوال حياة الحسن العسكري من تفكك عام وتحلل ظاهر، واستعلن الأتراك كعنصر سياسي لا يمكن تجاوزه.

وقد بلغوا من النفوذ والسلطان شأواً عظيماً جعلهم يتدخلون، ومنطق القوة كان يفرض عليهم ذلك، في كل دقائق شؤون الدولة، حتى أنهم تدخلوا في أمر البيعة ذاتها، كما حصل في بيعة أخ الواثق جعفر المتوكل على الله (232 هـ -247 هـ)، حين تآمروا القواد الكبار مع ابن الأخير: محمد المنتصر في قتل والده في مجلس لهوه مع ووزيره الفتح بن خاقان، لينصبوه خليفة بعد والده لسنة، ما لبثوا أن انقلبوا عليه بعدها، ليفصده طبيبه الخاص بريشة مسمومة!.

قلت:

وبموت المنتصر، استطاع كبار القواد الأتراك السيطرة على مقاليد الخلافة كلهـا، التي كانت لا زال خلفاؤها الصوريون وبطـانتهم مـن أشباه العلماء **المغلوب على أمرهم**، يتدثرون بالخبر السياسي المكذوب على الرسول ﷺ، الذي استحدث أيـام الأمـويين قبلهم، والقائل ب: "**الخلافة من قريش**" {أنظر علـى موقعنـا: "أخبار في السياسة لا تصح: الأئمة من قريش"}.

وقد أفاد العنصر التركي من قوته على الأرض، ولم يبالوا عملياً بهذه الحيثيـة النظريـة للاستحقاق، وترهل الخلافة واضح في أعينهم، فذهبوا يتوزعون منافع الإمبراطورية فيما بينهم، ما توزعها الخلفاء الصوريون قبلهم، لتقوم كردة فعل طبيعية للظلم الاجتماعي العام، ثورات لا أول لها ولا آخر ضد الخلافة في كل ربوع الإمبراطورية، بدءً من ثورات العلويين، وثـورات القرامطة، وانتهاءً بثورات الزنج إلى أن ترهل مركز الخلافة ولم يعد قـادراً علـى التمسك بأطرافه، لاستحوذ القواد الكبار عليها، يديرونها لحسابهم الخاص.

وهكذا وجدنا أحمد بن طولون يستقل بحكم بمصر مؤسـسا للدولة الطولونية (254 هـ/868 م - 293 هـ/905 م) ، لتليها بعـد سـقوطها الدولة الإخشيدية

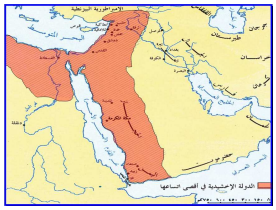

(324 هـ/935 م - 359 هـ/969 م) برئاسة محمد بن طغج الملقب ب "الإخشيد".

قلت:

وكان الفرع الحسني الزيدي قد تمكن من إنشاء أول دولة زيدية في المغرب الأقصى على يد إدريس الأول سنة 172 هـ،

كما ستنجح الفروع الغالية من الشيعة من إقامة دول لها على الأطراف كذلك، حال:

أ) **القرامطة** الذين استفحل أمرهم في شبه الجزيرة العربية (الإمارات العربية المتحدة وقطر والكويت والبحرين، وشرق المملكة العربية السعودية-الأحساء- حالياً). ما بعد سنة 286 هـ/889 م. وقد أسس المذهب حمدان بن الأشعث الملقب ب: "قرمط". قدم قرمط من الأهواز واستقر ب الكوفة سنة 278 هـ/891م. وكان قد تعرف على المذهب الإسماعيلي على يد بلديه: الحسين الأهوازي، إلا أنه ما لبث أن انقلب على الخط **الإسماعيلي الباطني** ليشرع في إقامة مذهب خاص به، متخذا من الكوفة مركزاً أطلق عليه اسم: "دار الهجرة"، داعياً إلى إمام من آل البيت، لم يكن سوى نفسه!.

وسيشتد خطر هذه الحركة بعد ظهور زعيمها في البحرين "أبي سعيد الجنّابي" سنة (286 هـ/ 899م).

ب) والإسماعيلية التي نجحت في تأسيس أول دولة لها

بزعامة عبد الله المهدي (ت: 296 هـ) في تونس، والذين سيؤول لهم أمر مصر بدخول المعز لدين الله القاهرة سنة 369 هـ/979 م.

ت) والدولة الزيدية العلوية بطبرستان،

ث) والدولة الطاهرية

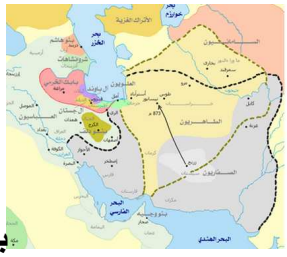

بزعامة عبد الله بن طاهر في خراسان. وهي سلالة عربية من الأشراف تولت الحكم في خراسان وشرق تركستان مابين 204 هـ/ 820 م -259 هـ/873 م.

وسبب نشأتها أن الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد عين سنة 204 هـ/ 820 م قائده طاهر بن الحسين 204 هـ/820 م واليا على خراسان.

استقل الطاهر بأمر الحكم مع بقائه اسميا تحت سلطة العباسيين، وبقاء أبنائه في خدمة الخلافة في بغداد.

وسوف تصبح الدولة أكثر استقلالية مع تولى أبناء الطاهر: طلحة الذي حكم خلال الفترة (207 هـ/823- 212 هـ/828 م) ثم عبد الله الذي حكم خلال الفترة (212 هـ/828- 30 هـ/845 م)

وقد ظلوا يخدمون الخلافة في حملات عسكرية خارجية، كما حصل في استيلائهم على مدينة الإسكندرية سنة 211 هـ/ 827 م.

وسيبدأ التفسخ يدب في دولتهم مع مطلع سنة 252 هـ/ 867 م ليفقدوا الحكم والسلطة لصالح الدولة الصفارية سنة 259 هـ/ 873 م التي خلفتهم.

ج) الدولة السامانية الشيعية

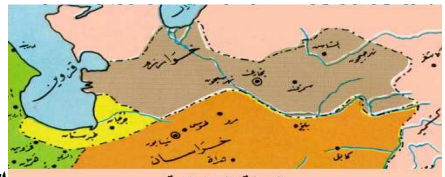

التي اتخذت من بخارى عاصمة لها، لتسيطر على شرق الإمبراطورية زهاء القرن (287 هـ/900 م - 384 هـ/994 م)، قبل أن يزيحهم:

ح) الغزنويون السنة بنو سبكتكين: وهي سلالة تركية حكمت منطقة جغرافية شملت أفغانستان وخراسان وشمال الهند (الخريطة)

الذين سيمتد حكمهم للفترة مابين (366 هـ/ 977 _ 544 هـ/1150 م) بدورهم.

خ) وقامت دول شيعية في كل من مدينتي: الموصل وحلب بزعامة الحمدانيين

.

د) وقامت دولة شيعية زيدية في الري والديلم وطبرستان تداولها بالتساوي ستة من الحكام: ثلاث منهم حسنيون وثلاثة حسينيون.

ذ) وقامت دولة زيدية حسنية في اليمن بزعامة ابن طباطبا الحسني.

6.1) ظهور البويهيين على المسرح السياسي

ينحدر بنو بويه من أعالي جبال الديلم (جنوب بحر الخزر) و يرجعون في نسبهم، حسب زعمهم، إلى ملوك الفرس الساسانية.

بدأ أمرهم في إقليم الديلم بزعامة أبي شجاع، الذي لمع اسمه في عهد الدولتين السامانية ثم الزيارية. وقد استطاع ثلاثة من أبنائه: أحمد، وعلي، وحسن، الاستيلاء على السلطة في كل من فارس والعراق وكان التشيع غالباً فيهم.

توالت غزواتهم فاستولى: أبو الحسن عليّ بن بويه علي (319 هـ/932 م - 337 هـ/949 م) على أرجان وما حولها ودخل مدينة شيراز سنة 322هـ ، وجعلها عاصمة له ثم شرع في مد نفوذه داخل فارس و أسس فرعا لهذه الدولة سيستمر إلى حدود سنة 446 هـ/ 1055 م.

واستولى أخوه: حسن (319 هـ/932 - 365 هـ/976 م) على الري وهمذان واصفهان. ودام حكم خلفائه حتى سنة 413 هـ/ 1023 م.

قلت:

وعندما تمت لعلي بن بابويه السيطرة على فارس راسل الخليفة العباسي الراضي (322 هـ - 329هـ) **يبايعه على الطاعة!!!!!.**

لكن، لم تمض سوى أقل من أربع سنوات حتى استولى معز الدولة أبو الحسين أحمد بن بويه على الأهواز سنة 326هـ، وكاتبه بعض قواد الدولة العباسية، مزينين له في دخول بغداد، عاصمة الخلافة.

وهو ما سيقوم به سنة 334هـ/ 946م، حين اتجه إلى بغداد بجيش جرار، لم تر حامية بغداد التركية جدوى من قطع الطريق عليه، ففضلت الانسحاب إلى الموصل.

دخل أحمد بن بويه بغداد فاتحاً، ولم يجد الخليفة المستكفى العباسي المغلوب على أمره بداً من القبول بالأمر الواقع، فلقبه معزاً!!!! الدولة، ولقّب أخاه عليّا عماداً !!!!! للدولة، ولَقب أخاه الآخر: الحسن ركناً!!!! الدولة.

و سيؤول الحكم الفعلي في هذه الحقبة من تاريخ الخلافة العباسية إلى البويهيين، ليحكموا إمبراطوريتهم

من عاصمة الخلافة: بغداد، لقرن كامل، انفرط فيه عقد الخلافة العباسية، ولم يبق للخليفة من مظاهر السلطة سوى الخطب التي كانت تلقى باسمه في صلاتي الجمعة والعيدين من فوق المنابر، مقرونة دائماً باسم السلطان البويهي، الحاكم الفعلي!.

بل لم يلبث أحمد بن بويه أن قبض على الخليفة، وفقأ عينيه سنة 334هـ/946 م

ولعل أهم ملحظ في الثورات الشيعية، ومنطلقها العقدي ومبررهـا الـسياسي **أكثر تهافتاً** وأقل اتساقاً مع عالمية الإسلام، من منطلق القائلين ب "الخلافة في قريش"، هـو زيديتها، مع خلو الفرع الجعفري الموسوي المهادن، الطالب للسلامة، من أيّ نشاط سياسي ثوري بارز فيها، حيث اشتهر بالخمول منذ زمن محمد الباقر (ت: 114 هـ) وإلى زمـن آخر أئمته التاريخيين المعروفين: الحسن العسكري (ت: 260 هـ) واستمر حالهم على ذلك بعده!.

قلت:

والملفت، هو أن مهمة المنظرين الجعفريين اقتصرت بالأسـاس فـي حبـك الأساطير الخرافية حول أئمة أسطوريين تختلف سيرتهم الواقعيـة كـل المخالفـة مـع **أنموذجهم النظري**، إلى أن استقل التنظير الجعفري بمرة عـن الواقـع، وعـشش بـداخل الأسـطورة والطوباوية، قبل أن تستطيع ثـورة **الخميني** 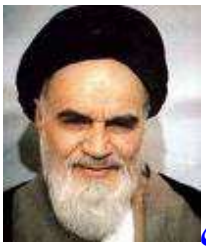 المعاصـرة، إخـراج شـكله المعاصر سنة 1400 هـ/1979 م، بعد أزيد من ألف عام من الركود السياسي فـي انتظـار الذي لن يأتي!، ولتغير جذرياً من هذه الاستكانة المميتـة دون أن تغيـر مـن عمـق المنشأ الأسطوري المؤسس للمذهب من قطمير!.

قلت:

ويُعد دخول **البويهيين** عاصمة الخلافة: **بغداد** واستيلاؤهم على مقاليد الحكم فيها، الحدث التاريخي الأبرز في تاريخ الإحدى عشرية المأزومة بموت آخر أئمتها، والذي سيكون له تأثيره البالغ والفعال في صياغة النظرية الإحدى عشرية المستقبلية برمتها، حتى وإن أتى عرضاً، دون أن يكون للطائفة أيّ دور مباشر فيه.

6.1.1) علماء الإحدى عشرية كوعاظ سلاطين

وسيكرر تاريخ المنطقة نفسه مرة أخرى، تصديقاً للسنة الأثيرة التي جرى بها العمل والعرف منذ أمد بعيد، بكون المذاهب لا تنتشر سوى بتأييد من سيوف الحكام، **على عكس ما ستدعي الدعاية المراجعاتية الإحدى عشرية اللاحقة**، في مغالطة مكشوفة!، من كونها عاشت كفرقة سياسية في **اضطهاد مستمر** تحت نير الحكام السنة![1].

وهو نمط سيعاد إنتاجه مرة أخرى في دولة الصفويين الشيعة

التي أقامها بإيران إسماعيل الصفوي

[2] سنة

[1] وقول الإمام ابن حزم هنا راهني ، من خلال مقولته الشهيرة، بأن مذهبي مالك وأبي حنيفة، إنما فرضا بسلطة الدولتين: الأموية الأندلسية والعباسية في العراق، وليس بالإقناع. يقول ابن حزم: {فإن يحيى بن يحيى (الليثي) كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاء، وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ممن كان على مذهبه والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به} انظر: أحمد بن محمد المقري التلمساني (ت: 1041 هـ) في "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب" (2: 218)، بعناية محيي الدين عبد الحميد، نشر دار الكتاب العربي، بيروت

[2] ينسب غلى جده الأعلى الشيخ صفي الدين (650 هـ - 735 هـ)..

905 هـ/1499 م، والذي أعلن نفسه ملكاً على فارس واتخذ **التشيع** مذهباً رسمياً للدولة وتعصب له[3].

بل وبالغ في تعصبه[4] حتى أدخل في المذهب بدعاً كثيرة أخرى زيادة على ما كان يعج به المذهب ويطفح، بما انتحله الغلاة وأدخلوه في المذهب على مر السنين!.

قلت:

وسيحظى الفقهاء المشاهير أنفسهم، بأساطيرهم المؤسسة، ك**نواب** عن **المهدي**، ضمن هذا الإخراج الأسطوري العام الذي ساد بين أوساط منظري الإحدى عشرية عامة، وبين القميين {نسبة إلى مدينة قم} منهم خاصة، خلال تلك الحقبة الحرجة، التي شغر فيه منصب الإمامة، ولأول مرة من وارث حيّ، خلال فترة الأكذوبة الأسطورية المعروفة لدى الجعفرية، باسم: "**الغيبة الكبرى**" .

وهكذا ستحبك أقاصيص في مناقب بعض **الفقهاء** ومعاجزهم! وكراماتهم!، ما حبكت في **الأئمة** أنفسهم، كتلك الأحبوكة التي نسجت حول أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت: 381 هـ)، الشهير بلقب "الصدوق" **وهو كذوب!**، الذي ستقول الأسطورة بأنه ولد بدعوة من **المهدي اللامنتظر!** ، الذي قال لوالده: علي بن

[3] ما سيتعصب الخميني نفسه في تبنيه لدستور الجمهورية الإسلامية على أساس طائفي متخلف على عصره.

[4] حتى قال عنه احد المؤرخين المعاصرين وهو عباس إقبال في "تاريخ عمومي إيران"، طبعة طهران، ص. 258: {كان غالباً ما ينتقده الفرس (يعني إسماعيل الصفوي) على ما ارتكبه من شطط وعنف في حمل الناس على التشيع قهراً وقسراً.

الحسين[5]، مؤلف كتاب "الإمامة والتبصرة من الحيرة"، بأنه سيرزق ولـــدين فقيهـــين مـــن جارية ديلمية![6].

قلت:

وسيخترق هؤلاء المخرفة، دون أن يرتد لهم طرف!، حجب المعقول والمنقـــول كلهـــا، ليدعوا بأن هذه **البشارة الإعجازية الغيبية!**، حصلت بتوسط مباشر مـــن **السفير** أبـي القاسم الحسين بن روح: النائب الثالـــث عـــن الأسطورة المهدوية إبـــان فتـــرة "الغيبة الصغرى"، الذي اشتغل كحلقة وصل ومحـــوِّل بريـــد، مـــا بـــين الأتبـــاع فـــي عالم الواقع، **والمهدي** **في عالم الخرافة!**، الذي جعلوه يجيب على تـــساؤلات واســـتفتاءات الأتباع زهاء السبعة عقود من غير توقف!، دون أن يرتد لأصحاب هذا التخريف جفن!، بل قالوا بأنها كانت ترد موقعه من طرفه بتوقيعات رسميه، لا يعرفها سوى النواب أنفـــسهم!، كاتبوهـــا بالأصالة، وينسبونها دون خجل أو حياء **للعنقاء!** .

وبكل تأكيد، لو كانت هذه الأسطورة متحققة لاحتفظوا بهذه الرسائل كحجة، إلا أن حبـــل الكذب قصير.

قلت:

---

[5] وكانت تحته ابنة عمه محمد بن موسى بن بابويه فلم يرزق منها ولداً،

[6] والولدان هما أبو جعفر الصدوق وأخوه أبو عبد الله.

والصدوق!، زيادة على هذه الحبكة الأسطورية في ولادته، وعلى عكس كل الفقهاء الإحدى عشرية الذين عاشوا قبله، سيحظى أيضاً بالتمكين السياسي للمذهب.

فقد كان هو نفسه مكيناً، وأثيراً وذا منزلة عظيمة لدى الحاكم البويهي الشيعي ركن الدولة، الحسن بن بويه بن فناخسرو الديلمي (284 هـ - 366 هـ). أو بمعنى آخر، فقد دشن الصدوق **عهد الوعظية السلطانية في المذهب**، ما كان قد عمل بها من قبل بعض وعاظ السلاطين المنسوبين للسنة، **على خلاف الأئمة التقويميين المجاهدين السنة**، الذين تعرضنا لتقويميتهم ضمن هذه السلسلة {أنظر على هذا الموقع: صناعة الفقه}.

ويتبين هذا بجلاء في تصدير **الصدوق** لبعض كتبه كما فعل في كتابه: "المقنع"[7]:

وبعد، فإني ممتثل! ما رسمه السيد الأمير الجليل أطال الله في عز الدين والدنيا مدته! وأدام بالتأييد نصره وقدرته وحرس من الغير أيامه ودولته!، من جمع مختصر في الأحكام وفرائض الملة وشرائع الإسلام ليعتمده المرتاد لدينه ويزداد به المستبصر في معرفته ويقينه ويكون إماماً للمسترشدين ودليلاً للطالبين وأميناً للمتعبدين يفزع إليه في الدين ويقضي به على المخالفين..

قلت:

[7] الصدوق: "المقنع"، ص. 27، ضمن "بحار الأنوار للمجلسي. وهو كتاب عقائد أيضاً حيث جعل عنوان بابه الثالث ص. 32: "باب ما يجب في الاعتقاد: الإمامة ومعرفة أئمة العباد" جاء تحته: {ويجب على كل مكلف أن يعرف إمام زمانه ويعتقد إمامته وفرض طاعته، وأنه افضل أهل عصره، وسيد قومه، وأنهم في العصمة والكمال كالأنبياء!!!}.

وهذا الجانب البطائني (من البطانة) الذي تمتع به كرجل سلطة، سيمده بالسلطة المعرفية، والمال الكافي وراحة البال الضرورية التي ستمكنه من تأليف كتابه: من لا يحضره الفقيه" تأسياً بكتاب الطبيب المتفلسف أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (251 هـ - 313 هـ) 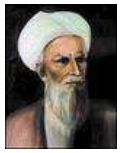 في مؤلفه في الطب: "من لا يحضره الطبيب"، الذي ستتبناه الإحدى عشرية اللاحقة وتدخله ضمن مرجعيتها كأصل ثاني من أصولها بعد كتاب "الكافي"، زيادة على مؤلفات أخرى فاقت الثلاثمائة مؤلف غطت كل المتطلبات العقدية، والفقهية، والتنظيرية للمرحلة الجديدة، وخصوصاً الموضوعات الأثيرة لدى الفرقة مثل:

-الوصية التي له فيها: "كتاب إثبات الوصية لعليّ"، و"كتاب إثبات خلافته"، و"كتاب إثبات النص عليه"، و"كتاب إثبات النص على الأئمة"،

-والغيبة وله فيها: "كتاب الرسالة الأولى، والرسالة الثانية، والرسالة الثالثة في الغيبة"،

-والمتعة وله فيها: "كتاب المتعة"،

-والرجعة وله فيها: "كتاب الرجعة"،

-والتوقيعات الأسطورية التي خرجت عن المهدي اللامنتظر وله فيها: "كتاب المصابيح: المصباح الخامس عشر في ذكر الرجال الذين خرجت إليهم

التوقيعات!"، وعقد باباً في كتابه "إكمال الدين" تحت عنوان: "باب ذكر التوقيعات الواردة عن القائم!!"[8].

-والتقية وله فيها: "كتاب التقية"،

-والأسرارية وله فيها: "كتاب السر المكتوم إلى الوقت المعلوم"،

-وإبطال الاجتهاد وله فيه: "كتاب إبطال الاجتهاد وإثبات النص"،...إلخ.

وسيأتي بعده تلامذته المباشرون، من أمثال:

أ) الشيخ المفيد (ت: 413 هـ)، المتكلم الموسوعي،

ب) وأبي محمد هارون بن موسى بن أحمد التَّلْعُكْبَري البغدادي (ت: 385 هـ) في الحديث،

ت) وأبي عبد الله الحسين بن عبيد الله بن إبراهيم الغضائري (ت: 411 هـ) في علم الرجال، وغيرهم ينحون منحاه مستفيدين من هذه الفرصة الذهبية التي سنحت للمذهب والتي ستمتد إلى سنة 447 هـ ، سنة ورود القائد السلجوقي طغرلبك

(ت: 455 هـ) بغداد واستيلاء السلاجقة الأتراك على مقاليد الخلافة العباسية[9]، خلفاً للبويهيين، لتبدأ مرحلة ثالثة في تأصيل الفقه الجعفري

---

[8] أنظر "إكمال الدين" ص. 45/482، ضمن "بحار الأنوار".

[9] ولن يكون حظ عامة المسلمين سنة وشيعة ولا الخلفاء العباسيين أحسن حال مما كانوا عليه أيام البويهيين، فقد تعرض جند طغرلبك لحرم الناس جهاراً وهجموا على الحمامات وأخذوا من أرادوا من النساء، وخرج الباقيات عاريات!. بل سيجبر طغرلبك الخليفة القائم بالله

سيدشنها الشيخ أبو جعفر محمد بن حسن الطوسي **(ت: 460 هـ) بإضافة كتابين جديدين كأصول للمذهب، وهما كتابي:** "التهذيب" و"الاستبصار".

انتهى وتليه الحلقة الخامسة عشرة
الإخبارية الإحدى عشرية ونبذ القياس والتعليل والاجتهاد

نفسه بأن يزوجه ابنته رغماً عنه. وهذا أمر لم يتجرأ على افتعال مثله أبناء بني بويه. حتى قال السيوطي في تاريخ الخلفاء عن مخازي طُغرلبك هذا: فلا عفا الله عنه. أنظر: ابن العماد الحنبلي (ت: 1089 هـ) في: "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" (3: 295)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، بدون تاريخ.